الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الكلية :الآداب واللغات

القسم: اللغة والآداب العربي

عنوان الليسانس: الأدب العربي

الشعبة: دراسات أدبية **التخصص: أدب عربي**

السنة الثالثة

السداسي :الخامس

المادة :جماليات السرد العربي القديم

محاضرات في مقياس:

جماليات السرد العربي القديم

الأستاذة: دربالي وهيبة

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة.

عنوان المحاضرة: السرد الاجتماعي

ظهر في السرد العربي القديم توجهات عديدة، ومنها الفلسفي والعجائبي والاجتماعي ، واحتل السرد الاجتماعي حيزًا كبيرًا في السردية العربية القديمة،فركزت المرويات السردية على ظواهر اجتماعية كثيرة بأساليب مختلفة ميزت كل سارد فظهرت المقامات والقصص الاجتماعية .

أولًا–التوجه الاجتماعي في السرد العربي القديم :

إن الغالب في النصوص السردية العربية القديمة هو توجهها الاجتماعي ، وكانت لغايات تعليمية وتربوية، وظهرت قصص تناولت الأحداث الاجتماعية، وعُرفت بالقصص الواقعية .

1–مفهوم القصة الواقعية :

إن القصة الواقعية هي التي شملت على موضوعات الحياة المتنوعة، وتدور أحداثها في واقع حقيقي أو متخيل شبيه بالواقع المعيش، وأبطالها شخصيات تتحرك وفق منطق الحياة الواقعية».

تناولت القصة الواقعية أحداث واقعية ارتبطت في الأساس بمشاكل وقضايا اجتماعية، وتبلورت القصة الواقعية العربية في إطار ظروف اجتماعية مضطربة ميّزها التفاوت الطبقي في المجتمع العباسي، وعالجت القصة الواقعية أحداث اجتماعية بأسلوب قصصي شيق ، وتكون مواضيعها في الغالب حقيقية عكست صورة المجتمع العربي آنذاك .

2– أبرز أعلام السرد الاجتماعي :

كتب الأدباء العرب في مواضيع اجتماعية مختلفة كالفقر والبخل والكرم ، ويأتي في مقدمتهم الجاحظ :

أ–السرد الاجتماعي عند الجاحظ:

مماهو معلوم أن الجاحظ أحد أهم أعلام النثر الاجتماعي، وفي هذا الإطار يعد الجاحظ « أول من اهتم بالشخصيات المهشمة، وأول من وجه مرآته الفنية باتجاه قاع المجتمع،فوطد بذلك قاعدة لفن قصصي واقعي».

ركز الجاحظ في قصصه الاجتماعي على بعض المشاكل الاجتماعية الخاصة بالطبقة الدونية في المجتمع العباسي «وجاء كتاب البخلاء "للجاحظ" صورة مركزة لما كان يسود مجتمعه،فقد تحدث عن طوائف المتسولين والمشعوذين والشطار والصيادين...وكما تحدث عن الطوائف العليا في بنية المجتمع البغدادي والبصري ،وسخر الجاحظ من الأشرار والحمقى،والتقى رنين الضحك بلذعات السخرية في إظهار نقائصهم وعيوبهم بأسلوبه التأليفي المميز لكتاب "البخلاء"».

تعرض الجاحظ لفئة من المتسولين والمشعوذين والشطار والصيادين ، ورصد تصرفاتهم السلبية، وألف الجاحظ كتاب البخلاء،وهو ينتمي إلى مجال القصص الاجتماعي، وتناول الجاحظ ظاهرة البخل من منظور سردي قصصي شيق، وقسم المجتمع إلى طبقات،وتحدث عن ظاهرة البخل في المجتمع العباسي،ووجه سخريته إلى البخلاء على وجه التحديد«واحتلت السخرية حيزًا كبيرًا في أدب الجاحظ،حيث مزج الجد بروح الدعابة والسخر».

اتضح أن أسلوب الجاحظ في السرد القصصي قام على المزج بين الجد والهزل،وإضفاء طابع الفكاهة والسخرية على الجو القصصي،دون إغفال المضامين الاجتماعية«ومايميز كتاب البخلاء هو ذلك الانسجام الكامل بين الموضوعات والشخصيات والأسلوب والعنوان إذ يسود الكتاب جو نفسي وعقلي واحد،كل ذلك لخدمة الموضوع الواحد (البخل)هو مايجلعنا لانحس بوطأة الرواة وهم رواة مشاركون في الحدث في معظم الأحوال..ولذلك نرى بثقة كبيرة أن "بخلاء الجاحظ" هو الكتاب القصصي العربي الأول وهو الركيزة الثانية،التي تأسس عليها الفن القصصي الخالص في العصر العباسي بعد كتاب كليلة ودمنة».

مهد الجاحظ الطريق للكتابة في السرد الاجتماعي، فظهر أسلوبه في كتابه البخلاء ، الذي جمع موضوعًا واحدًا في

إطار بنية سردية متكاملة ومنسجمة «وتميز الجاحظ في كتابه البخلاء بأنه تمكن من تصوير أخلاق الناس،الذين يعيشون في مجتمعه...مستشهدًا بما يلاحظ، ومستخدمًا السخرية والنقد والتحليل والاستنتاج ».

اعتمد الجاحظ على التصوير الدقيق للشخصيات الإنسانية،وطغى على أسلوبه السخرية في معالجته لظاهرة البخل«وغاص الجاحظ في باطن البخيل وعرف سريرته،وذلك لأنه مولع بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية،وتبيين الحركات الشعورية المختلفة،وملاحظة الصلات بينها ،وبين الحركات والسمات الظاهرة».

تقمص الجاحظ دور المحلل النفسي ،فقام بتصوير نفسية البخيل ،ورسم له صورة دقيقة في تناسق الحالة الشعورية للبخيل مع تصرفاته«وإذا كانت الروح النقدية عند الجاحظ مختلطة بالسخرية والمزاج والفكاهة فهذا لايضرها في شيء،ولاتؤثر على الروح العلمية؛لأنه يعرف كيف يمزج الجد بالهزل».

مايؤثر على الجاحظ أنه عقلاني جنح نحو الإقناع ،ولكننا نجده في قصص الخلاء يأخذنا نحو المزح والهزل تماشيًا مع غرضه من السرد، ومامميز أسلوب السرد لدى الجاحظ هو مزجه بين الجد والهزل ،فكان التحليل المنطقي لديه مندمجًا مع السحرية والفكاهة «وأما صفات بخلاء الجاحظ الفنية فلعل أولها تجليًا ،البراعة في الوصف ،والدقة في التصوير».

وبذلك فالجاحظ تفوق على معاصريه في روعة الوصف والتصوير، وهو ماقرب شخصياته من القراء «وهكذا نرى في كتاب البخلاء مظهرًا من مظاهر النزعة الأدبية الجياشة القوية الحس،السريعة الاستجابة،التي يمتاز الجاحظ بها ».

اجتمعت في قصص البخلاء خصائص الوضوح،وبلاغة التعبير،وقوة التأثير..الخ،وأسلوب الجاحظ «في الوصف هو وجه من وجوه الواقعية الغالبة عليه،وتعتبر السخرية من أبرز الصفات التي يمتازبها الجاحظ في كتابته حين يأخذ في النقد والتصوير».

ظهرت منهجية الجاحظ في السرد الاجتماعي،التي اعتمد فيها على بلاغة التعبير ووضوح الدلالة مع تحليل مزج فيه الجد بالهزل والسخرية بالفكاهة ، فتمكن من التأثير في متلقيه.

ب- السرد الاجتماعي عند الخطيب البغدادي :

كتب في ظاهرة البخل أدباء كثر ،ومنهم الخطيب البغدادي الذي يعد «من الذين خصصوا للبخل كتابًا مستقلًا بعنوان"البخلاء"».

تأثر الخطيب البغدادي بالجاحظ في موضوع البخل فألف كتابًا بنفس العنوان البخلاء ،وحاول الخطيب البغدادي محاكاة الجاحظ في تأليف قصصه الاجتماعي.

ج- السرد الاجتماعي عند ابن الداية (أحمد بن يوسف):

يعد كتاب المكافأة لابن الداية صورة ناضجة عن القصة الواقعية في القرن الرابع الهجري،لمايتميزبه من قدرة على تصوير الحياة الاجتماعية والسياسية في عصره، وبساطة شديدة محببة،وبالإضافة إلى نكهة شعبية واضحة على مستوي الشخصيات واللغة».

تحدث ابن الداية في كتابه المكافأة على المشاكل الاجتماعية في عصره ،وحاول التقرب من مستوى الشخصيات المهمشة بأسلوب سردي مال فيه إلى الطابع الشعبي«وتميز ابن الداية بدقة لغته في التعبير عن مواقفه وعناصره القصصية ،معتمدًا على الألفاظ الدقيقة في الدلالة، وقصص ابن الداية كلها موجزة ولكنها كثيفة ،تشكل فسيفساء اجتماعية ».

ومنه فقد قدم ابن الداية خطاب اجتماعي في قالب قصصي،ورغم قصر قصصه إلى أنه استطاع التأثير في القراء ولايقتصر الحديث عن سلبيات المجتمع عند الجاحظ أو ابن الداية أو الخطيب البغدادي،بل هناك أدباء كُثر تناولوا ظاهرة البخل من منظور قصصي وبأسلوب سردي.

د-مقارنة بين الجاحظ والأدباء :

سبق الجاحظ أدباء تناولوا قضايا اجتماعية،ومنها ظاهرة البخل « فقد كانت كتاباتهم فيه إخبارية لافنية ثم جاء أبو عثمان الجاحظ فألف كتابه "البخلاء" فكان فتحًا كبيرًا في هذا الميدان...وجاء بعد الجاحظ مجموعة من المؤلفين العرب،الذين تحدثوا عن البخل والبخلاء ضمن الكتب الأدبية العامة» .

كانت الكتابة في موضوع البخل قبل الجاحظ سطحية عامة ضمن مواضيع أدبية عديدة، ولكن الجاحظ أفرد كتابًا مستقلًا تحدث فيه عن البخل كموضوع واحد في كتابه، ومن اللذين تناولوا الظواهر الاجتماعية في قصصهم البغدادي وابن الداية

ونرى بوجود فرق بين أسلوبي الجاحظ والبغدادي،ومع أن موضوعهما واحد، وهو معالجة ظاهرة البخل« وقد نحا الخطيب البغدادي في كتابه البخلاء نحوًا جديدًا يختلف كل الاختلاف عن بخلاء الجاحظ ،فبنما كانت النزعة الفنية تسيطر على بخلاء الأول نجد النزعة التأريخية ،وطريقة الرواية تسود كتاب الخطيب ،وعلة ذلك أن الجاحظ كان أديبًا موهوبًا ،وكان الخطيب البغدادي مؤرخًا ومحدثًا ،فطغى أسلوب المؤرخين والمحدثين على بخلائه .

ونجد أن الجاحظ لم يقسم كتابه(البخلاء)إلى أجزاء ؛ وإنما عرض القصص والأخبار عرضًا أدبيًا فيه متعة فنية وإثارة الشعور الأدبي ؛ولكن البغدادي يقسّم كتابه إلى ستة أجزاء على حسب التجزئة القديمة ،وخص كل جزء بأخبار معينة».

هناك اختلاف بين الجاحظ والبغدادي من حيث منهجية التأليف ،وقد سادت النزعة التأريخية في السرد كتاب البخلاء للبغدادي، وفي المقابل طغت الجوانب الفنية في السرد في كتاب البخلاء عند الجاحظ.

ثانيًا- فن المقامات في التراث العربي :

إنَّ فن المقامة هو قديم له جذور في تراثنا العربي،وهو وليد الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية في المجتمع العباسي

1-تعريف مصطلح المقامة:

نتناول مفهوم مصطلح المقامة في اللغة ثم في الاصطلاح .

أ- **المقامة لغة :**

جاء في لسان العرب لابن منظور«المقامُ والمقامةُ:الموضع الذي تقيم فيه، والمقامةُ:الإقامة، والمَقامةُ :المجلس أو الجماعة من الناس».

ومنه فالجذر اللغوي لمصطلح المقامة يحيل على دلالة المجلس أو الجماعة من الناس،وهو مأخوذ من فعل قام، والمقامة هي المكان الذي يسكن فيه الناس،وتطَّورت دلالة المقامة لتعني الأحاديث،التي تروى في المجالس،وانتقلت دلالة مصطلح المقامة إلى الأحاديث والقصص التي تروى في المجلس.

ب-المقامة اصطلاحًا:

إنَّ المقامةُ هي قصة قصيرة تدور حول بطل وهمي يروي أخباره راوية وهمي، وبطلها يتحيّل من أجل تحصيل رزقه ووسيلته في ذلك فصاحةُ لسانه وسحر بيانه».

تستند المقامةعلى بطل محوري يروي أخباره رواية يستعين الكاتب بهذا الرواية لسرد أحداث القصة،وإنَّ المقامةهي نوع من القصة القصيرة«وهو بليغ ومسجوع يجري على لسان رجل ماكر يحتال على الناس،وتنتهي المقامةعلى عبارة أو وعظ أونكتة دينية أو أخلاقية».

إن المقامات هي قصص قصيرة تقوم على البراعة اللغوية في البناء،وتخلص إلى موعظة أونكتة تكون بغاية الترفيه «والمقامة هي قصص خيالية مختلفة الأغراض والموضوعة فيها سخرية شديدة،ونقد لاذع، وفيها ظروف من الأنواع التخابث لتكسب».

انفردت المقامة عن بقية القصص بالنقد اللاذع عن طريق السخرية والتهكم من سوء أخلاق بعض الشخصيات في المجتمع ونلاحظ توافق المدلولين اللغوي والاصطلاحي في أن المقامة هي الأحاديث القصصية،التي تروى في المجالس الأدبية.

2- طبيعة السرد الاجتماعي في المقامات العربية:

ظهر السرد الاجتماعي في المقامة،ويعد فن المقامات أشهر أنواع الأقاصيص في القرن الرابع الهجري«والمقامات هي القصص القصيرة،التي يودعها الكاتب مايشاء من فكرة أدبية ،أو فلسفية،أو خطرة وجدانية ،أو لمحة».

توضح المقامة رؤية كاتبها نحو القضايا الاجتماعية والسياسية، ولا تكون المقامة خالية من الملحة أو النادرة،ولقد حددت المقامات خصائص النثر العربي في العصر العباسي،ونشأت المقامات العربية لتلبية حاجة الأدباء في معالجة المشاكل الاجتماعية«وفن المقامة فن عباسي يمثل خلاصة تطور الكتابة النثرية الفنية في القرن الرابع الهجري ، فهو يمثل المكانة التي بلغها النثر العربي في مواجهة الشعر...والمقامة فن يختصر مرحلة من الثقافة العربية بسمات ضعفها وقوتها».

تناولت المقامات مواضيع اجتماعية متفرقة، وظهرت لتلبية حاجة الأديب في التعبير عن القضايا الاجتماعية،ومن أبرزها شيوع الاحتيال واللصوصية «وتعد ظاهرة الكدية من الظواهر الاجتماعية،التي برزت بروزًا قويًا في القرن الرابع الهجري ... تنوعت مصادر الهمذاني في تشكيل نموذجه المكدي في المقامات الإسكندرية».

ركز بديع الزمان الهمذاني على التأليف في فن المقامات، وتفوق على الأدباء في تصوير نموذج البطل المكدي في المجتمع العباسي، وسلك الهمذاني توجه الخاص في السرد الاجتماعي، فكانت له الريادة الأدبية في فن المقامة.

3-أبرز عناصر المقامة :

يرى د.إحسان عباس أن المقامة«ولدت قطعة نثرية مسجوعة قصير ذات طول محدد،وفي الغالب فيه البطل متنكرًا،وهي بين "عقد وحل" قصيري الأمد،ويكون الحل إشباعًا للتشويق».

نجد أن المقامة مثل القصص العربية الأخرى تتكون من بداية وعقدة وحل، وهي قصيرة الحجم ، وتتناول أحدات اجتماعية جزئية وعقدة بسيطة تنتهي بحل.

وتتكون المقامة العربية في الغالب من «العناصر الأساسية التالية:

1. راوية ينقلها عن مجلس تحدث فيه
2. مُكد تدور القصة حوله ،وتنتهي بانتصاره
3. مُلحة تُحاك حولها المقامة،وقد تكون هذه المُلحة بعيدة عن الأخلاق».

إن وجود الراوية والبطل المكدي والملحة أساس تشكل المقامة،بالإضافة إلى عناصر أخرى،فتتكون المقامة من«العنوان يكون باسم شخص(كالمقامة الجاحظ)أومكان(كالمقامة البغدادية)أوموضوعها،والحاكي (الراوي)والبطل والضمير الغائب والنكتة ».

باعتبار أن المقامة قصة قصيرة،فهي لاتقوم على تعدد الشخصيات،وموضوعها في الغالب اجتماعي يقوم على نكتة «وأصبحت المقامة بفضل ماأوتيه من ثقافة وخيال وفكرنوعًا من الأدب يقوم على كونه قصة صغيرة من إبداع الخيال،أومن تصوير الواقع وتحويره بما يرتضيه الخيال مكتوبة بأسلوب أنيق الجميل الألفاظ،تنتهي فقراتها إلى سجع لطيف..وتكاد لاتغيب في إنشائها عن خصائص القرن الرابع الهجري في نثره الفني من اقتباس،وتضمين وتورية وحكم وأمثال،وغير ذلك من المحسنات اللفظية والمعنوية».

يعد فن البديع (المحسنات اللفظية والمعنوية)العمود الفقري للمقامات العربية،وعالج فيها الأديب موضوع اجتماعي بأسلوب بليغ ، وتكمن أهمية المقامة في كونها فنًا أدبيًا مخترعًا، جمع فيه الأديب جودة الصياغة وعمق المضمون.

4-البنية السردية للمقامات العربية :

شهد فن المقامة تطورًا ملحوظًا خصوصًا في بنيتها،التي تغيرت عند بعض الأدباء «وإن البنية المميزة للمقامة كما وضع أسسها الهمذاني،اتصفت بأنها استندت إلى ركنين مهمين:أولهما:راوٍ ينهض بمهمة إخبارية محددة.

وثانيهما:بطل ينجز مهمة واضحة،ومن خلاصة تفاعل الراوي والبطل يتمون متن حكائي قوامه الرواية والحكاية ».

إن البنية التقليدية للمقامة قامت على عنصرين أساسين هما:الرواي والبطل،ومن خلال تكامل العمل بينهما نحصل على حكاية ناضجة،وظهرت البنية السردية التقليدية للمقامة «عند الهمذاني والحريري والواسطي والرازي واليازجي في القرن الرابع الهجري ثم ظهرت مقامة الزمخشري في القرن السادس الهجري،واستغنى فيها عن البطل،واكتفى براو يخاطب نفسه واعظًا،ولم تلتزم مقامات ابن الجوزي بقواعد المقامة ثم توالت محاولات الخروج عن البنية التقليديةعند القواس والسيوطي».

إن المقامات العربية لم تسلك بنية سردية واحدة،ومع تطور التأليف في المقامة خرج الأدباءعن البنية التقليدية المقامة مثل: السيوطي وابن الجوزي...الخ، والملاحظ أن البنية السردية للمقامة لاتتخلى عن البطل ، ومع الإشارة إلى أن «الفن القصصي ضعيف في المقامة لقصرها،ثم لأن القصة ليست غاية،بل واسطة وتمتاز المقامات بجمال لغتها،وكثر تغريبها واعتمادها على المجاز أكثر من الحقيقة».

إن المقامة هي لون قصصي اجتماعي مختلف عن بقية الأنواع في كونها تمزج الحقيقة بالخيال،ومن أحسن المقامات في السرد العربي نذكر«نجاح المقامة المضرية للهمذاني المضرية (مَضِيرةُ :نوع من الطعام يتخذ من اللحم واللبن) وقد جسَّدت شخصية المسكين ، ولقد هيمن أسلوب السرد الذاتي في المقامة».

ونأخذ نص من المقامةُ المضيريَّة لبديع الزمان الهمذاني قال فيه:«حدَّثنا عيسى ابن هشام قال:"كُنت بالبصرة ،ومعي أبو الفتح الإسكندري رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه ، والبلاغة يأمرها فتطيعهُ».

استعان الهمذاني في مقامته المضرية بالرواية عيسى ابن هشام،والبطل هو أبو الفتح الإسكندري، ومن سمات البطل فصاحته وبلاغته «ولغة الاسكندري هي لغة البديع،تلك اللغة التي حشد فيها البديع الكثير من المحسنات البديعية،والصور البلاغية،والكنايات وغيرها،فاستطاع أن يوظف هذه اللغة في خدمة فكره وفلسفته.

والاسكندري هو شاعر،وناثر،وخطيب، ناقد ،فقيه ،متكلم محيط بشتى فنون اللغة والأدب والدين ،لكأنه دائرة معارف سيارة»

اختار الهمذاني بطله الاسكندري ليعبر من خلاله عن سعة ثقافته وتبحره في فنون وعلوم لغوية كثيرة ،ولقدجسَّد أبو الفتح الإسكندري فلسفة الهمذامي،فمن خلال هذا البطل مرَّر الهمذامي أفكاره ومواقفه من قضايا اجتماعية ،ومامّيز أسلوب الهمذامي في مقاماته هو احتفاله بالمحسنات البديعية،وتعد المقامة المضرية من أبدع «ماصنع الهمذامي فيها من جمال القصة،وروعة الفن ودقة الوصف،وحسن الانتقال، واتساق الأفكار ، والسخرية والفكاهة».

تعرض الهمذاني للمشاكل الاجتماعية بأسلوب فكاهي ساخر تضمن فيه روعة التصوير والوصف الدقيق وتناسق الأفكار وبذلك فالهمذاني جمع بين بلاغة الأسلوب وجودة المضمون ورقيه«ومهما يكن من أمر نبوغ البديع (الهمذاني) فسيظل سر خلوده كامنًا في مقاماته،التي أبدع فيها ماشاء له الإبداع،التي تعد أقدم نص لدينا تتبلور فيه سمات الفن المقامي».

ومنه إذن نستطيع القول أن ماجمع الجاحظ بالهمذامي هو تناول موضوع اجتماعي واحد،وتمثل في ظاهرة البخل والكدية ومع الاختلاف في طريقة السرد عندهما،فالجاحظ عقلاني في الطرح والمعالجة،والتناول والحكي ،وأما الهمذاني فأسلوبه بلاغي وساخر ممتع.

مقارنة بين الجاحظ وبديع الزمان الهمذاني من حيث الأسلوب والمضامين :

	الجاحظ	بديع الزمان الهمذاني
أوجـــــه الشبه	*لهما نفس التوجه السردي الاجتماعي في معالجة القضايا الاجتماعية. *بلاغة الأسلوب عند كليهما . * توفر سمة السخرية والفكاهة عند كليهما . * كلاهما عالجا ظاهرة اجتماعية (البخل–الكدية).	
أوجـــــه الاختلاف	قصصه طويلة وشخصياته مستوحاة من الواقع.	قصص الهمذاني قصيرة ، وشخصياته مبتكرة .
	عقلانية الجاحظ في معالجة القضايا الاجتماعية	غلب الطابع الأدبي على سرد الهمذاني.

وفي الأخر نقول بأن السرد الاجتماعي استقطب أدباء كثر لكونه قريب من هموم المجتمع ،وكذلك لاعتبارات تربوية إصلاحية عند الأدباء، وحصل تناول ظواهر اجتماعية بأسلوب سردي جمع فيه الأدباء بين الإقناع والإمتاع، وبين الجد والهزل ،وغايتهم إضحاك الناس عن طريق الفكاهة والسخرية من الأخلاق الذميمة.